

كتاب نفيس

آراء وأحاديث
في التربية والتعليم

لمؤسّس ساطع المصري

بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

—

مؤلف هذا الكتاب ليس غريباً عن أسرة « الرسالة » ، ولا غريباً عن رجال التفكير والثقافة في الشرق العربي عامة ، أو في مصر خاصة ، وهو نفسه لا يمدُّ نفسه غريباً على مصر إذا عالج مسألة من مسائل الفكر أو تناول قضية من قضايا التعليم فيها . فإن نظراته العنيفة في التربية والتعليم لا تضيق في حدود وطن واحد ، ولا تتضاءل في مساحة بقعة واحدة ؛ ولكنها تمتد إلى ما وراء التخوم السياسية فتتسع لسورية والعراق ومصر وغيرها من البلاد العربية

وهذا الاعتبار يمكن أن يفسر اهتمامه البليغ بأمر التربية والتعليم في مصر ، ويدفع هو عن نفسه ما قد يرى به من الكلام في أمور لا تتصل بوطنه ؛ فيقول في عزة عربية نسجلها له مع الفخر : (وأرجو أن لا يمتدني أحد متطفلاً على مصر بهذه الملاحظات ؛ فإنني عربي صميم ، أدين بدين العروبة بكل جوانحي ، وأهم بمصر بقدر ما أهم بسورية والعراق) . وهذا دفاع بليغ يقطع الطريق على أمثال من يقولون :

إنما نسكر من أموالنا فسلوا الشرطي ما هذا الغضب ! لأن غضبة الأستاذ الجليل ساطع المصري ليست غضبة « الشرطي » ولكنها غضبة المُضرى التي يجب أن يحسب لها حساب ...

ولهذا لا ننظن أحداً من الناس في مصر أو في غير مصر بضيق صدره بآراء ساطع المصري في التربية والتعليم ، لأنه مخلص في إبدائها ، ولأنه عربي قبل أن يكون مصرياً ، والعروبة

تقتضيه حقوقاً كثيرة ، وخاصة في هذه الأوقات التي نسمع فيها كثيراً عن الوحدة والاتحاد والتعاون واليقظة العربية والوعي القومي . ولأنه هو نفسه قد أبان في كتابه نوازع اهتمامه بمصر (لأنها أصبحت القدوة المؤثرة على العالم العربي بأجمه)

لا ننظن أن أحداً من المفكرين والمثقفين والريين في مصر يفتض بأن مفكراً عراقياً وسورياً نشر كتاباً نفيساً في التربية وفيه مقالات حول نظام التعليم في مصر . لأننا نرى الخبراء يستقدمون إلى بلادنا ، وتفدق عليهم الأموال ، وتفتح لهم الأبواب ولكن ساطع المصري زار مدارس مصر - قادمًا لا مستقداً - في سنتي ١٩٢١ ، ١٩٣٦ ، وكشفت له الزيارات عن أمور رأى من الإخلاص للوطن العربي الأول أن لا يكتبها ، ورأى من الخير أن ينشرها

ونحن نرى أن بعض « الزوار » قد ينشرون كلاماً له خبيء أو يذيعون آراء لها خواف . ولكن الأستاذ ساطع واضح المقصد بئس الغاية حسن النية . ونرجو أن تكون تلك حاله التي ينطق بها لسان المقال

ليس هذا الكتاب كتاباً « فنياً » في أصول التدريس وطرق التعليم ، وليس كتاباً « مدرسياً » في « الدرس » وأجزائه « والتقدمة » وشروطها . « وملخص السيرة » « ووسائل الإيضاح » وما إليها من الموضوعات الجافة التي يحفظها (المعلم الجديد) ويضحك منها المعلم المتمرس أو يتقسم لها . ولو كان كتاباً كذلك ما استحق أن نطيل الوقوف عنده ، وأن نمرضه على القراء عرضاً يحملهم على الاطلاع عليه والظفر به ، لأن فيه نظرات في التربية والتعليم جمعاً المؤلف من هنا ومن هناك . ولا شك أن هذه النظرات وليدة تجارب بلاها المؤلف بنفسه ، وهدهاء إليها اطلاع وسيع ، وبحث عميق ، ومتابعة لكل جديد من الرأي في آفاق التربية والتعليم

والقسم الأول من الكتاب فيه مشاهدات وملاحظات في التربية والتعليم . وهذا القسم يجمع إلى صحة الفكرة التربوية طرافة الأسلوب وحسن العرض ، والخلوص من المثال أو الشاهدة

وهذا التوضيح يفسر لنا كثيراً مما يحدث في مجتمعاتنا
ومجامعنا الشرقية . فكثيرون منا لا يفعلون ما تطلبه قواعد
الجماعة ومواضعاتها منهم ؛ كالذين أشار إليهم الأستاذ ساطع
في مقصودات أحد المسارح ببغداد حين علا صوتهم وضوضاؤهم ؛
فلما نبههم إلى خطئهم أجابه أحدهم : إننا أحرار ، لا حق لأحد
أن يتدخل في أمرنا ...

لقد ردَّ الأستاذ المصري هذا السلوك الشائن إلى أننا لم
نتعود العمل مع غيرنا عملاً « مشرباً » وذلك صحيح . وصحيح
كذلك أن زرده إلى طبيعة المصيان والتمرد على قواعد الجماعة كما
فَسَّره الأستاذ كامبانياك

أما الفصل الذي كتبه الأستاذ المصري عن « تيارات
التربية والتعليم » فهو فصل معنيٌّ به مسهور عليه . وهو يشهد
باطلاع المؤلف على اتجاهات التربية الحديثة ومراميها ، والعوامل
التي أرتت فيها ؛ والمراحل التي مرت بها . وهنا تظهر طريقة
المؤلف في حسن العرض العلمي عرضاً متسلسلاً يدل على الفكر
المتسق ... ولقد أشار في خلال هذا الفصل إلى وجوب تقوية
علاقة الطلاب « بالطبيعة » التي طفت عليها حياة « المدن » .
إلا أننا نأخذ على الأستاذ ساطع إيجاز الإشارة إلى هذا الموضوع
الهام ، وكان المقام يتطلب منه إطالة واهتماماً أكثر . ولليروفور
كامبانياك في كتابه المشار إليه سابقاً فضل رائع « عنوانه
المودة إلى الطبيعة »

كما أن الأستاذ « نيومان » عالج هذا الموضوع معالجة علمية
في كتابه القيم « فكرة لجامعة » : Idea of a University
ص ١٣٣ ، ١٤٣

ومن عبارات كامبانياك الرائعة في ذلك الفصل قوله في
صفحة ٩٥ (يمكننا أن نلجأ إلى عالم الطبيعة مرات ومرات ،
لأنماشنا، وتطهيرنا وتقويتنا) وقوله : (أن مشروعاً تربيبياً يوجه
عقولنا وحواسنا إلى قوى الطبيعة ومختلف مجالها ، هو مشروع
حكيم الخطة)

إلى القاعدة التي يقرها . ولهذا لا تحس وأنت تقرؤه الجفاف
الذي يصادفه من يقرأ كتب التربية البحت ، و« الطفل المعاكس »
« وإثبات الذات » « والتربية بالثقة » « والحرية » وغيرها
نصيب في هذا القسم من الكتاب

أما القسم الثاني فهو محاضرات ومقالات في التربية والتعليم
أتى بعضها في نادي التضامن وبعضها في نادي المعلمين ببغداد .
ويمتاز هذا القسم من سابقه بالدراسة الفنية وعرض النظريات
التربوية عرض المرئي القسني لا عرض المشاهد المتقل كما
في القسم الأول

وفي هذا القسم فصل ممتع عن التربية الاجتماعية .
وقد نجح المؤلف في محاولة ردِّ تربيتنا الاجتماعية أو بالأجدر
مشاكلنا الاجتماعية في الشرق العربي إلى تغلب الأثرة Egoisme
على الإيثار Altruisme . وإلى أننا لم نتعود التفكير في غيرنا
تفكيراً اجتماعياً ، كما أننا لم نتعود العمل مع غيرنا عملاً
مشرباً Collectif

وهذا كله كلام جميل ، وفيه كثير من الحق وكثير من
الصدق ، فإن ذلك كله ينقصنا . ولكن ينقصنا شيء آخر لم
يشر إليه الأستاذ ساطع ؛ ولكن أوضحه البروفسور كامبانياك
الأستاذ بجامعة ليفربول في كتابه النفيس :

Education in Its Relation to the Common
Purposes of Humanity.

المطبوع في إنجلترا سنة ١٩٢٥

يقول هذا الأستاذ الإنجليزي في كتابه ص ٣٣ (إذا شاء
المواطن أن يتمتع بميزات ، فواجب عليه أن يقبل تلك المزايا
بشروط . فما هي الشروط التي يمكن أن يتمتع بها الرجل
بمزايا الجماعة ؟ إنها شروط يمكن أن يتمتع بها الرجل
ويسر في جملة واحدة : يجب أن يتعلم الرجل أن يفعل
ما يُطلب منه ، يجب أن يطيع قواعد الجماعة إذا أراد أن يحتفظ
بفضويته فيها)

بقى أن في الكتاب نسبة يستعملها الأستاذ ساطع (كالفردانية) (والأنوية) نسبة إلى أنا. (والقبمدرسية) نسبة إلى « قبل مدرسي » وهي طريقة في هذا الكتاب وأطرف منها المصادر التي يستعملها. وهي صحيحة ولكنها لا تستعمل عندنا في مصر « كالتديد » « والترقيع » « والانتياض » بدلاً من المد والترقية والقياس التي نستعملها هنا

وبعد فإن كتاب الأدب العربي الأستاذ ساطع المصري يعد محاولة ناجحة في عرض الاتجاهات التربوية عرضاً يرايح إليه الأدب، قبل أن يرايح إليه الربى. وهو من هذه الناحية كان خليقاً بأن يقرأه الأدباء والمفكرون والمثقفون قبل أن يقرأه الربون والمعلمون

وكفاه قيمة أنه - فيما نعلم - أول كتاب عربي غير مصري يتناول مسائل التربية والتعليم في مصر بصراحة وإخلاص يستحقان الشكر والإعجاب.

محمد عبد الفتاح حسن

اللغة والدين والتقاليد

هي الرسالة التي أجازتها لجنة المباراة الأدبية الرسمية للثالثية من أصحاب المعالي والسعادة أحمد لطفى السيد باشا وجمفر ولى باشا وبنى الدين بركات باشا ومنطقى عبد الرازق باشا والدكتور طه حسين بك

وهذه الرسالة تشرح بالتفصيل ما يجب أن نراعيه في الحياة الدينية والأدبية والاجتماعية

تطلب من المالكين المشهورين ، وعن النسخة عشرة قروش

أما الفصل الذى عنوانه « تعليم التاريخ » فلنا عليه استدراك ، فالأستاذ ساطع يحتم أن نعيد النظر في تاريخنا العربى بنزعة تريبوية قومية ، وينادى بأن دروس التاريخ يجب أن ترمى إلى « التربية القومية » قبل كل شىء . وتلك دعوة طيبة تقابل من الأستاذ المصرى بالقبول الحسن من كل البلاد العربية التى نشد الوحدة فى عالم أجدت فيه أمم مختلفة النزعات واللغات ، فكيف بأهم وحدت بينها اللغة والجنس والمادات ؟ إلا أن الهدف من تعليم التاريخ ليس تنمية القومية (قبل كل شىء) . فمن الغبن أن نطمط الأهداف الأخرى ونفخسها قدرها . فقد ينفعنا تعليم التاريخ على وجه صحيح فى إدراك صورة واضحة لمعى « الخير » للجماعة وأعضائها ؟ وقد ينفعنا تعليم التاريخ العربى على وجه صحيح فى إيقاظنا من سبات عميق طال عليه الأمد ... وقد ينفعنا تعليم التاريخ العربى على وجه صحيح فى تجريد الدين من كل ما علق به من أوشاب القرون وغبار السنين ...

وقد ينفعنا التاريخ فى العمل على تحسين حالتنا الصحية التى أصبحت مرضاً عضالاً وداء قاتلاً . فلو اعتنى فى مدارسنا بتدريس تاريخ الأوبئة والحيات والأمراض ، ولو اعتنى بدراسة تاريخ ما اتخذ من وسائل لمقاومة المرض وتحسين الصحة وإنشاء البلديات وكشف الجراثيم ، لاجتمع لأبنائنا ثقافة صحيحة تقوم إلى تربيتهم القومية

وقد كان ذلك من أغراض تعليم التاريخ فى إنجلترا بناء على الرسالة التى نشرتها الحكومة البريطانية سنة ١٩٣٤ بعنوان : (مطبعة الحكومة الإنجليزية لندن - ص ٦٤)

أما الفصل الممتع الذى كتبه الأستاذ ساطع حول تعليم اللاتينية واليونانية فهو يستحق عليه التهنئة . فقد عرض القضية عرضاً لا يدع فيها مقالاً لقائل . وهو هنا يتكلم دائماً والدليل بين يديه والحجة بيمينه ؛ فيحملك على الاقتناع بكلامه وقد أثار فى نفسى شهوة إلى قراءة « التحقيق البرلماني الفرنسى » الذى يذكره أستاذنا ومديقنا توحيد السلحدار بك